مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٠) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (10) 2025

حضور المرأة في شعر الهُذَلِيّين

أ.د. محمَّد معلّا حسن*

ثناء خضر السالم**

(تاريخ الإيداع ٩/١١ /٢٠٢٥. قُبِل للنشر في ١٠/٢٨ /٢٠٢٥)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث صورة المرأة في شعر الهُذليين. وقدْ درستُ حضورها من خلال موضوعات الغزل، والرحيل، والذِّكريات، وزيارة الطَّيف. فقد تغزَّل الشعراء الهُذَليُّون بالمرأة، وأظهروا مشاعر عشقهم لها، ووصفوها بالدِّرّ والغزال، وغير ذلك، مُعتَمِدين على الطبيعة في أوصافهم، مُصوِّرين جمالها.

كما تحدَّثوا عن رحيلها مع قومها. فعندما ترحلُ يرحلُ إحساس الشاعر ببهجة الحياة والاستقرار. ويرتبط رحيلها مع قومها بطبيعة الحياة الصحروايةِ. فلمَّا تَجفُّ منابع الماء، وتستحيل الحياة في المكان، يرحلون بحثاً عن مكان مُخصِب مُناسِب للعيش.

وتكون الذِّكريات وسيلة نجاة الشاعر من واقعٍ صعب. فَتَذَكُّرُ المرأة يمنحه القدرة على مواجهة الصِّعاب والصبر، ويمنحه التوازن. وقد يكون التَّذكُّر سلبيَّاً لمَّا يكون اللقاء مُستحيلاً.

ويحضُر طيفُها. وزيارةُ الطيف إلحاحٌ على حضور المرأة، وتأكيدٌ على أهميَّتها. هذا الطَّيف الزائر يؤرِّق ليلاً لمَّا يكون اللقاء غير ممكن. ويكون حضور الطيف إيجابيّاً يمنحُ الشاعر لحظات وصال، تُسعِد النَّفس، وتُقوِّي الشاعر. كما يفتحُ باب الشكوى ممّا حلَّ به من فقر، وتبدُّل في حاله، وتغيُّر النَّاس في المعاملة.

الكلمات المفتاحية: امرأة، ذكريات، رحيل، غزل.

*أستاذ –قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة طرطوس– سورية– لا يوجد بريد إلكتروني.

**طالبة دراسات عليا " دكتوراه" –قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة طرطوس– سورية Email:Tnanaa36@gmail.com

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٩) العدد (١٠) ٢٠٢٥
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (9) No. (10) 2025

The Attend of women in the poetry of Al- Huthaliyyin

*** D. Muhammad Hasan**
**** Thanaa Assalem**

(Received 11/9 /2025. 28 /10/2025)

□ ABSTRACT□

This research addresses the image of women in the poetry of Al- Huthaliyyin. I studied their presence through themes such as: love, departure, memories and the visiting of the apparition. Al- Huthaliyyin poets expressed admiration for women, revealing their feelings of love , describing them as pearls, gazelles, and other symbols, often relying on nature in their depictions to illustrate beauty. They also discussed her departure with her tribe. When she leaves, the sense of lifes joy and stability departs with her. Her departure is linked to the desertic nature of life. When water sources dry up ,and life in a place becomes impossible, they move in serach of fertile, suitabl land to live. Memories serve as the poets means of survival in a difficult reality. Remembering the women gives him the ability to face hardships endure, and maintain balance. Sometimes recollection can be negative, when meeting her becomes impossible. Her apparition is also present the visitation of the apparition emphasizes the presence of the women, and confirms her importance. This visiting apparition can disturb the poet at night .When an actual meeting is impossible the presence of the apparition can also be positive, granting the poet moments of union that delight the soul and strengthen him. It also opens a space for lamenting the effects of time, such as poverty changing circumstances and the transformation of people in their behavior.

Keywords: departure , love , Woman, memories.

*Professor, Arabic department.faculty of literatures,tartous university, T tartous,Syria .
** postgraduate student,, Arabic department.faculty of literatures,tartous university, ٤ tartous,Syria.Email:Tnanaa36@gmail.com

مقدّمة:

يتحدَّث البحث عن حضور المرأة في شعر الهُذليين ، وقد حضرت من خلال تغزُّلهم بها، ووقوفهم عند رحيلها، وتذكُّرها، والحديث عن طيفها الزائر. فقد تغزَّل الشعراء الهُذليُّون بالمرأة ، واصفين حُسنها، ومشاعرهم نحوها، مستعيرين من الطبيعة عناصر في أثناء تغزُّلهم بها، فقد أوجعهم رحيلها مع القوم، فصوّروا حزنهم على فِراقها، وشوقهم إليها. وأشعلتِ الذكريات في أنفسهم نار الحنين إليها، فكانت الذكريات وسيلةَ رفضٍ لواقع لا يحبُّونه، يذكرون المرأة لغرض النجاة من قسوة الحاضر، والتصبُّر بالعودة إلى ماضٍ جميل نعموا به بصحبتها. وكشف طيفها الزائر عن ألمٍ لمَّا كان غيابها غيرُ مُفضٍ إلى وصال. شكَوا لهذا الطيف قسوة الزمن تارةً، واستمتعوا بزيارته، وما منحته الزيارة من لحظات سعادة تارة أخرى.

أمَّا الدراسات السابقة التي نجد فيها حضوراً للمرأة في شعر الهذليّين، فمنها: كتاب الأسلوبية والتقاليد الشعرية للدكتور محمد بريري، وفيما يخص حضور المرأة في الشعر الجاهلي، فنجده في كتب كثيرة منها: كتاب الليل في الشعر الجاهلي للدكتورة نوال إبراهيم، والمرأة في الشعر الجاهلي للدكتور أحمد محمَّد الحوفي.

أهمية البحث:

تأتي أهميَّة هذا البحث من دراسته أهمية المرأة في حياة الشاعر الهُذليّ ، فهي بوصلةُ الشاعر ودليلهُ في الحياة، وهي سنده ومصدر قوَّته، وإحساسه بجمال الحياة، وما فيها من بهجة واستقرار. يصفُ جمالها ومشاعرهُ نحوها مُتغزِّلاً، ويؤلمه رحيلها مع قومها، فيصوِّر أثر فراقها في نفسه، ويتذكّرها مواجهاً الصعاب، ويزوره طيفها، فيتقوّى ويفرح.

منهجيَّة البحث:

اعتمد البحث المنهجَ المتكامل الذي يعتمد على أكثر من منهج نقدي، ولم يتقيَّد بمنهج مُحدَّد. فقد استعان بما يخدم الدراسة النصية التأويلية من مناهج الدَّرس الأدبي، و معطيات المنهج النفسي والاجتماعي؛ رغبةً في إيفاء النصوص المدروسة حقَّها من التَّحليل والتَّأويل.

أغراض البحث:

يهدف البحث إلى التعرُّف على مكانة المرأة في شعر الهُذليّين، وفي حياة هذه القبيلة، والتي نلتمسها من القصائد. كما يعمد إلى دراسة الصور الشعرية في أثناء تناول الأغراض التي سأدرسها وهي: الغزل، والرحيل، والذكريات، وزيارة الطيف.

حضور المرأة في شعر الهُذَليّين

شغلتِ المرأة فكرَ الشاعر في العصر الجاهلي، فهي مصدر إحساسه بالاستقرار والعاطفة والحياة، تمنحه التوازن والقدرة على مواجهة الصعاب مهما اشتدَّت.فـ((إذا كان العربيُّ كَلِفاً بأن يشيدَ بمفاخرِهِ ويذيعَ محامدَه، فإنَّه كان كَلِفاً أيضاً بتوجيه الخطاب إلى المرأة–زوجته أو حبيبته– وإشهادها على هذه المفاخر)) [٥] . فالمرأة هي واحة السكينة للشاعر، يتَّكئ على ذكراها؛ ليتمكَّن من مواجهة ما يعترضه من عقبات. وكما يقول أدونيس: ((المرأة للرجل الواحة والماء والجَمال، رمز الخصب والطّمأنينة، رمز ما يَبْعَث ويَخْلَق، وما يعلو ويتسامى)) [٦] .

---

[٥] المرأة في الشعر الجاهلي ، د.أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، مصر، الطبعة الثانية،١٩٦٣م، ص٢٠٢.

[٦] مقدمة للشعر العربي،أدونيس، دار الساقي، لبنان، ٢٠٠٩، ص ١٦.

تغزَّل الشعراء الهُذليُّون بالمرأة ، واصفين حُسنها، ومشاعرهم نحوها، مستعيرين من الطبيعة عناصرها في أثناء تغزُّلهم بها. وأوجعهم رحيلها مع القوم، فصوّروا حزنهم على فِراقها، وشوقهم إليها. وأشعلتِ الذكريات في أنفسهم نار الحنين إليها، فكانت الذكريات وسيلةَ رفضٍ لواقع لا يحبُّونه، يذكرونها لغرض النجاة من قسوة الحاضر، والتصبُّر بالعودة إلى ماضٍ جميل نعموا به بصحبتها. وكشف طيفها الزائر عن ألمٍ لمَّا كان غيابها غيرُ مُفضٍ إلى وصال. شكَوا لهذا الطيف قسوة الزمن تارةً، واستمتعوا بزيارته، وما منحته الزيارة من لحظات سعادة تارة أخرى.

١- **الغزل:** تغزَّل الشعراء الهُذليُّون مثل غيرهم من شعراء العصر الجاهلي بالمرأة، فأظهروا مشاعر العشق والوجد نحوها. والغزل هو الوقوف عند صفات المرأة، والحديث عن حسنها، وميلِ الشاعر إليها. فـ((إذا ذكرَ الدارسون الشِّعر المعنيَّ بصفاتِ النساء، وميل الرجال إليهنَّ والحديث عن جمالهنَّ وخصالهنَّ، وصدودهنَّ ووصالهنَّ سمُّوه الغزل)) . وإن كان شاعر ذلك العصر قد[٧]افتتنَ بوصف الطبيعة، فقد أسبغَ على المرأة ما في موجودات الطبيعة من درٍّ وغيره . فنظر في جمالها وصوَّره، ودقَّق في معالمِ حسنها ووصفه، فهي بيضاء البشرة، عيونها كعيون الغزال أو البقرة الوحشية، مضيئة كالدُّرَّة، وشبيهة الغزال في حسنها. هذا ما يؤكِّده القول:((غير أنَّ الطبيعة –مهما تحسن وتجمل– لم تكن تروي ظمأ الشاعر ولا تغنيه عن جمال الأنثى الذي كان عند الشاعر الجاهلي مَثَلَ الجمالِ الأعلى، يتغنَّى به ويسخِّر لإبرازه كلَّ ما في الطبيعة من أشجار، وأزهار، ودرّ، وجوهر، وظباء...)) .[٨]

ومن ذلك تغزَّل أبو ذؤيب بالمرأة، فوصفها بالدرَّة غالية الثمن، يقول:[٩]

كأنَّ ابنةَ السهميّ دُرَّةُ قامِسٍ لـها بـعدَ تقطيعِ النُّبوحِ وهيجُ
بِكَفَّي رَقاحِيٍّ يُحِبُّ نَـماءَ ها فيُبرزُها لـلبيعِ فـهي فَـريـجُ
أجازَ إليها لُـجَّةً بـعدَ لُـجَّةٍ أَزَلُّ كـغُرنوقِ الضُّـحولِ عَموجُ

يشبّه الشاعر ابنة السَّهميّ بالدُّرَّة المضيئة ليلاً؛ ليشير إلى علوِّ مكانتها، هذه الدُّرَّة بكفَّي تاجر حريصٍ على ماله، يريد أن يزيده (يُحبُّ نماءها)، وأن يُحسِّن معيشته(قراحيّ)، فيطلب بها أغلى الأثمان. وتشير اللفظة (فريج) إلى أنَّ هذه الدُّرَّة مكشوفة. وهذه الصفة تنطبق هنا على المرأة، فالنظر إليها متاح للجميع، ولكنَّ الوصول إليها ليس مُتاحاً، إنَّما يحتاج إلى جهد كبير مبذول من قبل الشاعر. وكأنه وحده من استطاع الحصول عليها والظَّفَر بها ، متفوّقاً على الآخرين، وظفره بالمرأة هو ظفر بالحياة .هذا ما يؤكِّده لمّا يتحدَّث عن صعوبة الوصول إلى هذه الدُّرَّة، فقد بذل الغوّاص جهداً كبيراً، وتعمَّق في لُجَّة الماء حتى وصل إليها. والغوَّاصُ قليل اللحم(أزلُّ)، وهذا يساعده في الوصول إليها، فتكون حركته خفيفة. ويشبّهه الشاعر في غوصه، وسرعة حركته في الماء(عَموج) بطائر الغُرنوق. يعمد الشاعر إلى التشبيه ، و((الشاعر يكشف فيما يُسمّى بالتشبيه عن علاقة معنويّة، تُسهِم في بناء المعنى الكلّي الذي يعتمل في نفس الشاعر

---

[٧] الأدب الجاهلي، قضاياه أغراضه أعلامه فنونه: د. غازي طليمات ، أ. عرفان الأشقر، دار الفكر، دمشق،٢٠٠٧، ص١٣٠.

[٨] المرجع نفسه،ص١٤٢.

[٩] ديوان الهُذَليّين، المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م،١/٥٦. سهم: حي من هُذَيل.قامس: غائص. النُّبوح: أصوات الناس. رَقاحيّ: يرقح معيشته: يصلحها.الدُّرَّة بكف تاجر قائم على ماله يريد غلاء ثمنها. فريج: يبرزها في السوق ظاهرة مكشوفة للناس لا يحجبها شيء. أجاز: أجاز إلى الدُّرَّة أي نفذَ. لُجَّة: الماء الكثير الذي لا ترى طرفيه. أزَلُّ: قليل لحم العجز والفخذين، وصفه بذلك ليكون أخفَّ له إذا غاص. غُرنوق: طائر من طيور الماء. الضُّحول: الماء القليل. عموج: الذي يتلوَّى في الماء.

وعقله)). والمعنى الذي يريد الشاعر إيصاله هو قدرة الغائص على الوصول إلىٰ هدفه بيُسر وسهولة، مادام يغوص غوص هذا الطائر، ثمَّ تمكُّن الشاعر من الوصول إلى هذه المرأة، كما تمكَّن الغائص من الوصول إلى الدُّرَّة. وصورة (الغائص /الطائر) هي نزوع إلى السُّرعة والانقضاض والوصول إلى الهدف بسهولة، ثمَّ التحرُّر من القيود كلّها، والعلوّ.

ويصفُ ساعدة بن جؤيَّة[١] شَعر المرأة الحبيبة، واسمها غضوب، يقول:

وافتْ بأسحمَ فاحمٍ لا ضـــرَّةُ قِصَرٌ ولا حَرِقِ المَفارِقِ أشيَبُ
كذوائبِ الحَفَأِ الرَّطيبِ غَطا بِهِ غَيلٌ ومَـدَّ بــجانِبَيه الطُّحلُبُ

يتغزَّل الشاعر بشعر المرأة شديد السواد(أسحم)، ويستعير من الطبيعة(الفحم)؛ ليشير إلى شدَّة سواد هذا الشعر(فاحم). وهو شعر طويلٌ، لا يُعيبُه قِصَر (لا ضرَّةُ قِصَرٌ)، يخلو من الشيب، أو الخفَّة في مفارقِه(ولا حَرِق المفارق أشيبُ)، وهذا يدلُّ على جماله. وهو مضفور(ذوائب)، يُشبه البُردي، وقد علا به الماء. هذا التشبيه يمنح الشَّعر حيوية وجمالاً، فهو شبيه ورق البردي، وقد ارتفع فوق الماء. وحضور الماء، واللون الأخضر، والرطوبة مشهد من مشاهد الحياة، تعالق مع صورة جمال المرأة ليرسّخا صورة الحياة.

ويتغزَّل المتنخِّل بالحبيبة الراحلة سارداً تفاصيل حسنها، يقول:[٢]

عِـــيرٌ عــليهنَّ كــنانــيَّـــةٌ جـاريةٌ كالــرَّشَأِ الأكــحلِ
كالأيمِ ذي الطُّرَّةِ أو ناشئ الـــ ـبَرْديّ تحتَ الحَفَإِ المُغْيِلِ
تَنْكــلُ عن مُتَّسـقٍ ظَــلْمـــهُ في ثـغرِهِ الإثـمِدُ لـمْ يُـفلَـلِ
غُـرِّ الثَّنـــايا كـالأقـاحي إذا نَوَّرَ صُبْحَ المَطَرِ المُنجَلي

تُشبِهُ هذه المرأة في حُسنها ظبياً صغيراً أكحل، وتشبيهها بالظبي الصغير يدلُّ على فُتوَّتها. لكنَّ الغريب في البيت الذي يأتي بعده تشبيه هذه المرأة بالحَيَّة التي لها خطَّان أسودان على الجانبين، فنتساءل ما المقصود من التشبيه؟ هل المقصود تحرُّكها بسرعة هذه الحَيَّة؟ قد يكون الأمر كذلك. ويكثر الشاعر من التشابيه التي تدلُّ على صِغر سنِّ المحبوبة فهي غضَّة فتِيَّة، مملوءة حياة وحيويَّة كصغار ورق البَردي النَّضِر المُتَركِّز تحت الورق الأكبر منه (تحت الحَفَإِ المُغيِل). وينتقل بعدها الشاعر إلى الحديث عن جمال مبسمها، فأسنانها مستوية متينة قويّة لم تنكسر (لم يُفلِل)، إنَّها مازالت في سنِّ الشباب. هذه الأسنان جميلة كأنَّها أقحوان صبَّحه المطر، فأزال ما عَلِقَ عليه من تُراب، فظهر حسنه، وبانت نضارته. يكشف هذا التشبيه عن جمال منقطع النظير يَميز أسنان هذه المرأة، فتضيء إضاءة هذا الأقحوان مع قدوم الصبح، وانجلاء الظُّلمة.

---

[١] الأسلوبية والتقاليد الشعرية، (دراسة في شعر الهُذَليّين)، د.محمد بريري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١ ١٩٩٥م، ص٩٩.

[١] ديوان الهُذَليّين، ١/١٧٥. وافت: أي لقيتنا. أسحم: أسود. الفاحم: شديد السواد، وإنّما أُخِذَ من الفحم. (حرق: قَصُرَ، فلم يطل أو انقطع ، لسان العرب، "حرق".(المفرق من الرأس: ما بين الجبين إلى الدائرة، لسان العرب،"فرق".(ذؤابة: الشعر المضفور من شعر الرأس. الحَفأ: البَرديّ. الرَّطيب: الناعم. غطا به: علا به، أي ارتفع به. الغيل: الماء الجاري على وجه الأرض.

[١] المصدر السابق ٢/٤،٥.الرَّشأ: الظبي الصغير. ناشئ البَرديّ: صِغارُهُ. الأيم: الحَيَّة التي لها مِثلُ الخوصتين في جنبها، والخوصتان: المقصود خطَّان أسودان. الحَفَأ : البَرديّ الأخضر مادام في منبته.المُغْيِل: الذي في الغَيل وهو الماء ، الغَيل: الماء الذي يجري بين ظَهرَي الشَّجَر. تنكَلُ: تضحك. مُتَّسَق: مستوٍ. الظَّلْم: ماء الأسنان. في ثغره الإثمد: في أصوله سواد كالإثمد. لم يُفلَل: لم ينكسر ولم يكبرْ، وهي أسنان شباب لم يطل الأكل عليها ولم يكسرها حدُّ الزمان. المُنجلي: المُنكشِف. يقول: كأنَّ أسنان هذه المرأة أُقحوان صبَّحهُ المطر، بعدما غسل عنه التُّراب.

٢- **الرحيل:** ترحلُ المرأة مع قومها، فيرحلُ معها إحساس الشاعر ببهجة الحياة والاستقرار، إنَّها الحبيبة التي تمنح الشاعر الإحساس بالسكينة وجمال الحياة. أخذ رحيل المرأة شكل الرحيل الجماعي، فهي تغادرُ مع قومها لمّا تُجدِب القبيلة، وتستحيل الحياة في المكان. ترحل معهم؛ بحثاً عن مكانٍ مُخصِب يتوفَّر فيه مقوِّمات العيش.

فقد صوَّر أبو ذؤيب رحيل الظعائن، فشبَّهها بالنّخل. ولعلّ في هذا التّشبيه توق إلى الخصب، ورغبة في حياةٍ ملؤها الخير، يقول:[١] [٣]

يا هَلْ أُرِيْكَ حُمولَ الحيّ غادِيَةً كالنَّخْلِ زيَّنَها يَنْعٌ وإفْضاحُ
هَبَطْنَ بَطْنَ رُهاطٍ واعْتَصَبْنَ كَما يَسْقِي الجُذُوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضَّاحُ
ثُمَّ شَرِبْنَ بِنَيْطٍ والجِمالُ كَأَنْ نَ الرَّشْحَ مِنهُنَّ بالآباطِ أَمْساحُ
ثُمَّ انْتهى بَصَري عَنْهُمْ وَقَدْ بَلَغوا بَطْنَ المَخيْمِ فقَالوا الجَوَّ أوْ رَاحوا

تعبّر رحلة الظّعائن عن معاناة الإنسان في مواجهة قسوة الظروف الطبيعية، هو متمسِّك بالحياة، مُقبلٌ عليها، يرفضُ الاستسلام لقسوة بيئته، فيشدُّ رحالَه؛ بحثاً عن مكان مناسبٍ للعيش، فمن أراد الحياة عليه أن يكافح حتى يحصل عليها.

يُحدّد الشاعر وقت رحيل الظعائن (غداة)، ويشبّه الحُمول وما عليها من الزّينة المُتعدّدة الألوان بنخلٍ حَانَ قِطافُه، فاختلطت خُضرتُه بصُفرة أو حُمرة. والنّخل يجسّد توقَ الشاعر إلى حياةٍ رغيدة فيها خصبٌ وماء، وقد أشارت الدكتورة ريتا عوض إلى مضمون تشبيه الأظعان بنخلٍ حان قِطافهُ: ((يقوم هذا التشبيه المفاجئ على الجمع بين الضِّدَّين، فالرحلة اقتلاع من الأرض. وتحويل للدّيار إلى أطلال تحدث نتيجة جَدْب الأرض، وهي فِراق للأحبّة وانقطاع قد لا يؤدّي إلى لقاء، فيُخلِّف الحسرة والألم والعذاب. والنّخلة التي حان صِرامُها رمز للخصب، للأرض الخَيِّرَة المرويَّة بالماء، تجسيد للعطاء والجني والامتلاء)) . فالشاعر هنا يستعين بالصورة[٤]الشعرية معلناً تمسُّكه بالحياة، فالنَّخل الذي شُبِّهت به الظعائن الراحلة قد أراد منه الشاعر أن ينشر خيره في المكان؛ لتستمرّ الحياة. والرحيل قد يكون بتراً للعلاقة بالمرأة، فعندما يُجدِب المكان، و تستحيل عودة الحياة إليه، ينفطِر قلب الشاعر لهذا الرحيل ، ويبقى في حالة حسرة وألم.

يتتبَّع الشاعر الرّحلة معدّداً الأمكنة التي مرَّت بها، مشبِّهاً اجتماع الإبل في المكان؛ استعداداً للرحيل، باجتماع النّخل الذي يقوم النضّاح بسقايته. تعكس الصورة في هذا البيت توق الشاعر إلى الماء، و إنهاء الرحيل. وفي هذا التشبيه عطش إلى الحياة، ومحاولة حثيثة من الشاعر لِدَفْع القَحْط، واستعادة الحيويّة إلى المكان بعدما حسَرَتها عوامل الجوّ القاسية في تلك البيئة الصحراويّة الجافّة.

في هذا المكان المُقفر لا تَسْلَمُ الجِمالُ المعروفةَ بشدّة تحمُّلِها العطشَ والحَرَّ؛ إذ يتسبّب الحرُّ الشّديد بنضْح العرق بغزارة من تحت آباطها، فيظهر هذا العرق للنّاظر إليه بعد جفافه، كأنه كساء من شعر. أوضحت هذه الصورة

---

[١] – ديوان الهُذَليّين، ١\٤٥-٤٦. يَنعٌ: إدراك. الإفضاح: إذا ما اختلط في خضرته بصُفرة أو حُمرة. هبطن: يعني اجتمعن كاجتماع هذا النّخل الذي يُسقى. النّضّاح: الذي يسقي. نيط: موضع. الرَّشح: العرق. المسح: كساء من الشعر. انتهى بصري: انقطع. قالوا: من القائلة، نصف النهار. الجَوّ: موضع. راحوا: راحوا عنها.

[١] بنية القصيدة الجاهلية، د. ريتا عوض، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ص٣٥٨.

قسوة الطبيعة، وإجهاد الجِمال وتَعبها في هذه المرحلة. ولولا التشبيه لما وصلت إلينا– بهذه الجمالية– صورة معاناة هذه الجِمال من فعل الطبيعة. ويغيب مشهد الظعن المُرْتحلة عن نظر الشاعر، تاركاً إيَّاه في حسرة وقهر واستسلام. وهذه الصورة المملوءة خصباً–تشبيه الظعائن بالنَّخل– لم تغيّر الواقع، لقد رحلت المرأة مع قومها الباحثين عن شروط الحياة الأساسية.

ويزخرُ مشهد رحيل الظعائن عند مليح بن الحكم بالصور. يقول:[٥]

تَشَوَّفْتَ إِثْرَ الظّاعِنِ المُتفرّقِ وشَمَّاءُ بانَتْ في الرَّعيلِ المُشرّقِ
غَدَوا بعدما هَمُّوا بِأَنْ يتهجَّدوا بِلَيْلٍ وَزَمُّوا كُلَّ أَعيْسَ مُحْنِقِ
غَدَوْنَ وَأعقابُ الظَّلامِ يَشُلُّهُ صَباحٌ كنسْجِ الحائكِ المُتَفَتِّقِ

يستخدم الشاعر الكناية في إعلانه خبر رحيل الظعائن في قوله (زمُّوا كلَّ أعيسَ مُحنِق). فهاهم قد مضَوا بعدما شدّوا زمام إبلهم الضامرة ، المُرهَقة من الجوع، أو من كثرة الإجهاد والحركة.

يحدِّد الشاعر وقتَ الرحيل وهو وقتُ انبلاج الفجر، وخروجه من غياهب الظلام. فقدوم الصَّباح يطرد الظُّلمة. ونراه يشبّه انبثاق خيوط الفجر الأولى بتفتُّق نسجِ حائك، وتفتُّق النسيج في يد الحائك لا يكون دفعة واحدة، يحتاج الحائك إلى وقت لإنهائه، والأمر ذاتُه في قدوم الصبح المسبوق بظلام، إنّه يحدث رويداً رويداً، وليس باللحظة ذاتها. تنجح هذه الصورة الواضحة في التدّليل على وقت الرحيل المبكِّر، فـ((كلّما كانت الصورة أوضح كانت فعّاليّتها أكبر)) [١]. وقد أدَّت المعنى المقصود بوضوح ويسر.

ويرصدُ أبو قُلابة رحيلَ المرأة مع قومها متعجّباً من فعل الزمن الذي قلبَ حياتَهم، رأساً على عَقِبْ، فهؤلاء القوم كانوا يعيشون بسلام قبل أن يهجُم القحط، فيسلبهم ديارهم، ويرغمهم على الرّحيل، يقول :[٧]

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَصَرْفُ الدَّهْرِ ذُو عَجَبٍ كاليَوْمِ هِزَّةَ أَجْمالٍ بأَظْعَانِ
صَفًّا جوانِحَ بِيْنَ التَّوْءَمَاتِ كَمَا صَفَّ الوُقوعَ حَمامُ المَشْرَبِ الحَانِي

يُشبِّه الشاعر هذه الأظعان المُنْحنية بسبب كثرة الثّياب على الهوادج بالحمام المنحني . فالقوم الراحلون يحمِّلون النوق ما يثقل حمله، حتى كادت تنحني من كثرة ما تحمل، فأشبهت الحمام وقد انحنى؛ ليشرب الماء. والحمام رمز للسلام، والشاعر يريد لهذه الظعائن السلامة في رحلتها الشاقة هذه. ولعلّ في هذا التشبيه ما يعكس توق الشاعر إلى الماء، واستعادة الخصب، وإنهاء الجدب، ثمَّ إيقاف رحيل القوم، وقد ذهبت معهم الحبيبة التي تمنح حياة الشاعر لون البهجة، و مذاق الاستقرار.

---

[١] شرح أشعار الهُذَليّين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السُكَّري تحقيق: عبد الستّار أحمد فرّاج، مراجعة: محمود محمّد شاكر، طبع مطبعة المدني، نشر مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م. ٩٩٩١٣–١٠٠١.الرّعيل: أول ما تقدّم من الحيّ. أعقاب: أواخر. يشلّه: يطرده. (المحنق من الإبل: الضامر من هياج أو غرثٌ، لسان العرب، (حنق) ٤/٢٥٠). (الغرث: أيسر الجوع وقيل شدّته، لسان العرب، (غرث) ٢٨/١١).

[١٦] مبادئ النّقد الأدبي. آ. أي ريتشاردز، تر: د.إبراهيم الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية، ٢٠٠٢م، ص ١١٨.

[١]ديوان الهُذَليّين، ١٣ ٣٧، ٣٨. جوانح: مائلات، دنيّات من الأرض للثياب على الهوادج. التوائم: مراكب للنساء لا ظِلال عليها، واحدتها توأمة.

وتتعدّد النِّساء عند إياس بن سهم في أثناء حديثه عن الرحيل. يقول : [٨]

جَلَتْ سَلْمى وَزَايَلَتِ القَرِيْنَا وَلَمَّا تُطْلِقِ القَلْبَ الرَّهِينَا
وَفَجَّعَك الفِراقُ بأُمِّ عَمرٍو غَدَاةَ تَحَمَّلَتْ في الظَّاعِنِينَا
وَفي تِلْكَ الظَّعائنِ آنِساتٌ جَمَعْنَ مع النُّهى حَسَبًا ودِينا
عَقائلُ مِنْ ذَرَى الفَرْعَين غُرٌّ خَوالِبُ إنْ وَعَدْنَ فلا يَفِيْنَا
تَرَكْنَك مِنْ عَلاقَتِهِنَّ تَشْكو بِهِنَّ مِنَ الْجَوَى لَعَجًا رَصِينَا

يعلن الشاعر خبر رحيل القوم من خلال التَّركيز على رحيل سلمى الحبيبة، ثمَّ أمّ عمرو. يعتمد الشاعر على ذكر امرأتين في إعلان خبر رحيل القوم، وكأنَّه يقاوم بذكرهما قسوة الرحيل. المرأة الأولى اسمها أمُّ عمرو ، وفي هذا الاسم المسبوق بأمّ دلالة على الأمومة، والمرأة الثانية اسمها سلمى ، وفي هذا الاسم دلالة على فقد الشاعر السِّلْم والاستقرار، وهذا ما أرَّق الإنسان في ذاك العصر. ويزيد من حسرةِ الشاعر، وإحساسه بمرارةِ الفقد وصْفُ النسوة الظّاعنات بالجمال والنّضج العقلي. وعلى رأي الدكتورة ريتا عوض: ((ويزيد وصف النساء بالجمال والنعمة من تكثيف الوعي بفداحة الخسارة،)). فهؤلاء النسوة رحيلهنَّ خسارة، إنّهنّ نواة بناة أسرة جيّدة بعقولهن، ومصدر إحساس، وتلذُّذ بمُتع الحياة بما فيهنَّ من جمال داخلي وخارجي.

٣- الذِّكريات: يعود بعض الشُّعراء إلى ماضيهم متذكِّرين المرأة؛ رغبةً منهم في مواجهة العَقَبات التي تعترض حياتَهم، فالذكريات سبيل نجاة الشاعر من واقع يُثقل قلبه. تقول الدُّكتورة نوال إبراهيم: ((الذّكريات تشي بحرص شديد على الحياة المتمثِّلة بالمرأة، وبالرَّغبة في تجاوز الحرمان وعدم الاستقرار، والواقع المضطّرب الذي عاشه إنسان العصر الجاهلي)) . وبذلك تكون المرأة وسيلة دفاعيّة يتحدّى الشّاعر من خلالها الحاضر[٢] المُضني، إنّها تقيه التكسُّر على عتبة مرحلة قاسية، فتذكُّرها يمنحه القدرة على المواجهة والصّبر، ويعيد التوازن إلى داخله المهزوز. وعندما تحضرُ المرأة، يحضُرُ الإحساس بالحياة. إن غابت فذكراها حاضرة وقائمة، وتذكُّرها يمنح الشاعر القوّة والقدرة على مواجهة الصِّعاب.

وقد يكون للتذكُّر حضورٌ سلبيٌّ، فيزيد من أحزان الشاعر وآلامه لمّا يكون الوصال مستحيلاً. يتذكَّر مليحُ بن الحكم ليلى، مُظْهِراً أثرَ فِراقِها في نفسه، يقول : [١] [٢]

تَذَكَّرْتُ ليلى يَوْمَ أَصْبَحْتُ قافِلاً بِزيزاءَ والذِّكرى تَشُوقُ وَتَشْغَفُ
غَدَاةَ تَرُدُّ الدَّمعَ عَينٌ مريضةٌ بليلى وتاراتٍ تَفِيْضُ وتَذْرِفُ
وَمِنْ دُونِ ذِكْراها التي خَطَرَتْ لَنَا بِشَرْقِيِّ عَمَّانَ الشَّرا فالْمُعرَّفُ

[١] شرح أشعار الهُذَليّين، ٥٤٢١٢. القرين: يعني نفسه. لَعَج: شدّة حرقة الحبّ للقلب. الرّصين: المُحْكَم.

[١٩]- بنية القصيدة الجاهلية، د.ريتا عوض، ص ٣٥٨-٣٥٩.

[٢]- الليل في الشعر الجاهلي، د.نوال إبراهيم، دار اليازوردي، الأردن،٢٠٠٩، ص ١١٩.

[٢]- شرح أشعار الهُذَليّين، ١٠٤٢١٣ -١٠٤٣. قافل: يأتي أهله. زيزاء: أرض خَشِنة.

تفعلُ الذِّكريات فعلها السلبيّ في نفس الشاعر، فيشتاق إلى ليلى ويتألَّم على فراقها. فتكون الدّموع وسيلة تطهيريَّة يستخدمها الشاعر في مواجهة قسوة الأيام التي سلبته ليلى. والفِراق صورة نابضة بقسوة فعل الزمن في نفس الشاعر. وبتعبير الدكتورة ريتا عوض((الفراق بين الحبيبين رمز لجُور الزمن، وصورة من صور تلاعبه بالإنسان وحياته ومصيره)) . فما يزيد من قهر الشاعر، وشِّدّة إحساسه بثقِل الزمن انعدام القدرّة على رؤيتها، و انبتات الوصال؛ بسبب بعد المسافة الفاصلة بينهما.

ويتقوَّى صخر الغيّ بذكْر دهماء قبل أن يبدأ بحملة وعيده على أبي المُثَلَّم، يقول [٣] :

إنّي بِدَهماءَ عَزَّ ما أَجِدُ ... عَاوَدَنِيْ من حِبابِها الزُّؤَدُ
عاوَدَنِيْ حُبُّها وَقَدْ شَحَطَتْ ... صَرْفٌ نَواها فإنّني كَمِدُ

يستمدُّ الشّاعر من تذكُّر دهماء – الّتي رحلت وصارت بعيدة عنه – القوّة اللازمة ليواجه من يُهدِّد. وعلى الرَّغم ممّا تُثيرُه الذّكريات في نفسه من ألم وحزن وعذاب، فإنَّها تمنح الشاعر الإحساس بالقوّة والقدرة على مواجهة الخصم. يحاول الشّاعِر مقاومة خلافه مع أبي المُثَلَّم بالاتّكاء على تذكُّر المرأة. فالمرأة قوَّة مُعادِلة للزّمن، ومُضادَّة له، إنْ يكسره الزمن تعيد له المرأة توازُنَه.

و يتذكّر أبو صخر ليلى، مظهراً أثر فِراقها في نفسه [٤] :

هل القَلْبُ عَنْ بَعْضِ اللَّجَاجَةِ نَازِعُ ... وهَلْ ما مَضَى من لَذَّةِ العَيْشِ رَاجِعُ
لَنا مثلَ ما كُنَّا إذِ الحَيُّ جِيرَةٌ ... سَقَى ذلك العَيشَ الغَمامُ اللَّوامِعُ
لَيالِيَ إذْ لَيلى تَدَانَى بِها النَّوَى ... وَلَما تَرُعْنا بالفِراقِ الرَّوائِعُ
وإذْ لمْ يَصِحْ بالصُّرْم بيني وبينَها ... أَسَاحِمُ منها مُستقِلٌّ وواقِعُ
وما ذِكْرُ أيَّامِ الصِّبا اليومَ بعدما ... عَلا الرأسَ شيْبٌ في المفارِقِ شائِعُ

ينطلق الشاعر في حديثه من حاضره الحزين، فيتحسَّر على ما مضى من الزّمان. ويتساءل سؤال العارف عن إمكانيّة عودة أيام الشباب، فيكشف استفهامه عن رغبته في التخفيف من حدَّة إحساسه بالألم، وهو يرقب حاضِر عجزه وضعفه. وأمام سطوة زمن الضعف يعودُ بالذاكرة إلى الماضي زمن وصل المرأة، وجيرة الحبيبة، فتلك أيّامٌ جميلةٌ تستحقُّ الذِّكر. ولكن حتى زمن الذكرى الذي من شأنه أن يعيد إلى الشاعر بعض توازن نِفسه المهزوزة مَشوبٌ بالقهر، فالمرأة غائبة. ومن هنا يكمل الشاعر استعراض الذكريات التي بدأت توجعه، فالمحبوبة رحلت في ذاك الماضي.

---

[٢٢] بنية القصيدة الجاهلية: د. ريتا عوض، ص ٣٣٩.

[٢] ديوان الهُذَليّين، ٥٧\١٢–٥٨. حِبابها: حبها. الزَّؤد: الذُّعر والفَزَع. صَرْفٌ: تَصرَّفٌ. نَواها: نيّتها أي وجهها الذي أخذت فيه. كمِد: شديد الحزن.

[٢٤] شرح أشعار الهُذَليّين، ٩٣٤\٢. أساحِم: غِرْبان، واحدها: أسْحَم.

ويستخدم الشاعر للتعبير عن إيذان زمن الفِراق صوت الغربان التي تنعَقُ بالصُّرم، و انبتات حبل الوصال، وصوت الغربان نذير شؤم. وأمام هذا الماضي الذي بدأ جميلاً وانتهى بِفِراق، ونتيجة رحيل المرأة التي جرّدت الشاعر من أدوات مواجهة الزّمن، لا مجال أمامَه سوى الخضوع لقسوة الحاضر، فلا تذكّر يُجدي أمام الحقيقة، فقد ولّى زمن القوّة، وشاب الرّأس، وغادرتِ المرأة.

٤- زيارة الطيف: يمتدُّ أثرُ فِراق المرأة في نفس الشاعر، فيستحضرُ طيفها. والطَّيفُ وسيلة أخرى استخدمها الشاعر القديم في مواجهة قسوة الحاضر؛ ليخفِّفَ من حِدَّة إحساسه بالألم، ويستعيدَ بعضَ توازنه. وفي زيارة الطَّيف إلحاحٌ على حضور المرأة، وتأكيدٌ على أهميّتها في حياة الشاعر القديم. يقول الدكتور محمد بريري: ((طيفُ المرأة وخيالُها تقليدٌ شعريٌّ آخرُ، يؤدّي ما نذهب إليه منْ أنّ المرأة ترمز في الشِّعر العربيّ لفكرة الحلم أو العالم المثالي الذي يسعى الإنسان لبلوغه، ولكنَّه يتعالى عن كلِّ سعي)) [٢] [٥] .

يزور طيفُ شمّاء الشاعر ربيعة بن الكودن، فيؤرّقه بحضوره كلَّ مساء، بعد أن بَعُدت ديارها، ولم يبقَ له منها سوى هذا الطَّيف، يقول [٦] [٢] :

أَفِيْ كُلِّ مُمْسَى طَيْفُ شَّماءَ طارِقِي ... وَإِنْ شَحَطَتْنا دارُها فمُؤَرِّقِي
وَمِنْها وَأَصْحابِي بِرَيعانَ مَوْهِنًا ... تَلَأْلُؤُ بَرْقٍ في سَنًا مُتأَلِّقِ
أَرِقْتُ لَهُ ذاتَ العِشَاءِ كَأَنَّهُ ... مَصَابِيْحُ عُجْمٍ عِنْدَ صَرْحٍ مُغَلَّقِ

يزور طيف شمَّاء الشاعر مساء(ممسى). والطّيف مرتبط بالليل، حيث الهدوء والسكينة، وانعدام الحركة. يذكر الشريف المرتضى أنَّ طروق طيف المحبوبة في شعر الجاهليين لا يكون عادةً إلاّ في الليل، فما زال الشعراء يتمنّون الليل ويستحثّون النوم لعلَّ الطيف يطرقهم [٧] . فاللّيل يفتح آفاق التفكير؛ إذ يمنح الإنسان فرصة العودة إلى نفسه بعيداً عن انشغالات النَّهار المملوء حركة.

هذا الطَّيف لا يمنعه وجود الأصحاب الذين يستأنس بهم المرء عادةً، وهذا يدلُّ على شدة تأثُّر الشاعر بشمَّاء وتعلُّقه بها. ونرى الشاعر يربط بين زيارة الطيف، و إيماض البرق، فكلاهما يتسبّب له بالأرق. طيف المحبوبة بعيدة المقام، و إيماض البرق في قصر منيع.

ولعلّ انّقاد الأمل بلقاء شمّاء البعيدة جعل الشاعر يستحضر صورة البرق شديدِ الإيماض. إلاّ أنّ ربط هذا البرق بالقصر المُغلَّق أوحى بالبعد، واستحالة اللّقاء. أما ربط القصر بالعُجم، فقد عمَّق البعد المكاني، ودلَّ على يأس الشاعر من احتمالات الوصال، هذا ما يؤكده الدكتور محمد بريري في أثناء تعليقه على هذا البيت: ذكْر الأعجمي يعمّق الإحساس بالبعد، وليس البُعْد بعداً مكانياً، بل هو بعد معنوي يتَّصل بأنَّ المرأة في مثل هذا الشعر تمثّل غاية

---

[٢] الأسلوبية والتقاليد الشعرية (دراسة في شعر الهُذليّين): د. محمد بريري، ص١٣٥.

[٢] شرح أشعار الهُذَليّين، ١٢ ٦٥٥. الطيف: الخيال الذي تراه في المنام ممن تحبُّ وغيرِه. منها: من ناحيتها. ريْعان: بلد. مَوْهِناً: بعد ساعة من الليل. متألّق: إذا اشتدَ البرق، فقد تألّق. ذاتُ العِشاء: وقت العِشاء. الصَّرح: القَصْر. مُغَلَّق: لأنّه منيع.

[٢] انظر: طيف الخيال: الشريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، مراجعة: إبراهيم الأنباري، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٩٦٢. ص١١، ٢٦، ١٢٠. من كتاب الليل في الشعر الجاهلي: د. نوال إبراهيم، ص ١٢٤.

بعيدة المنال . ومن هنا دلّت هذه الأبيات على[٨] استحالة الوصول إلى المرأة، فلم يبقَ[٢] للشاعر منها سوى لحظات اللقاء الحُلُميَّة المتمثّلة في طيفها الزائر دائماً.

وتَمْنع الهموم أبا صخر من الرُّقاد، فهو لا ينعم بالرّاحة والقدرة على الاستمتاع بلذة النّوم، التي ينعم بها الإنسان الخالي من الهمّ، ففِراقُ ليلى يؤرّقه، وطيفُها يهيّج أشواقه، يقول : [٩]

نَامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَّيلَ لَمْ أَنَمِ ... وَهَيَّجَ العَيْنَ قَلْبٌ مُشْعَرُ السَّقَمِ
مُكَلَّفٌ بِنَوَى ليلى ومِرَّتِها ... يا طُولَ ليلِكَ ليلاً غيرَ مُنْصَرِمِ
قَدْ كُنْتُ أَحْسبُني جَلْداً فَهَيَّجَنِي ... طَيْفٌ لَها طَارِقٌ لَمْ يَسْرِ من أَمَمِ

الهمُّ هو مصدر القلق والإحساس بامتداد الزمن، فكيف إن كان وقتُه ليلاً، حين ينفرد الإنسان بنفسه لا تُلهيه حركة عن التفكير بها. فالليل كما يذكر عبد العزيز شحادة مصدر التوتُّر والقلق عند الشعراء إذ يقاسون فيه أحزانهم فرادى . [٣٠] [٣]

ويمتدُّ حزن الشاعر فيبكي، ويطولُ ليله وكأنَّه غير منتهٍ؛ ذلك نتيجة انشغاله بذكرى المرأة البعيدة. وتأتي زيارة الطيف لتؤكِّد عجزه عن نسيانها رغم بُعدها عن عينه. وبتعبير الدكتورة نوال إبراهيم ((ولعلَّ الإحساس بالعجز أمام حقيقة الطَّيف الخادعة هو الذي يهيّج أحزان الشاعر)) . فتفيض نفسه أسىً بزيارة هذا الطيف المخترق المسافات البعيدة الفاصلة بينهما، كما يُؤكِّد التَّركيب: (لم يَسْرِ من أمَمِ). [٣]

وتتعدَّد الأطياف الزائرةُ عند سهمَ بن أسامة بن الحارث، فيشكِّل البعد المكاني حاجزاً يحول من دون رؤيتهِ المرأة، يقول : [٢] [٣]

ألا أَرَّقَتْنا بالسَّرى أمُّ نَوْفَلِ ... فأهْلاً بِذاكَ الطَّارِقِ المُتغلغِل
كما أَرَّقَتْ بالطَّفِّ من رَمْلِ عالجٍ ... أُمَيَّةُ بَعْدَ النَّوم من أهْلِ مَجْدَلِ
وكِلْتاهُما تَسْرِي وَمِنْ دُونِ أَهْلِها ... مَلاً إنْ تُكلَّفْه المَرَاسِيلُ تَكْلِلِ

يطول ليل الشاعر أمام زيارة هذين الطَّيفين، ويمتدُّ زمنياً فيجافيه النَّوم. ويستخدم الشاعر للتعبير عن بعد المسافة التي تفصلُهُ عنهما الكناية في قوله (ومن دون أهلها ملاً إنْ تُكلّفْه المراسيلُ تَكْلِلِ). وتطول المسافة الفاصلة بينهما، فتعيا الناقة السريعة السّير في قطعها الطريق. واللجوء إلى الصورة يؤدّي المعنى المطلوب ببلاغة ويؤكِّده، ويُعمِل الخيال، ممّا يمنح البيت الشعري جمالاً ورونقاً، فعلى الرغم من أنَّ الناقة مسرعة، فهي تعيا في أثناء قطعها

---

[٢] انظر: الأسلوبية والتقاليد الشعرية(دراسة في شعر الهُذليّين): د. محمد بريري، ص ١٣٩.

[٢٩] شرح أشعار الهُذَليّين، ١٢ ٩٦٧. (مِرَّتها: شدة العقل، لسان العرب، (مرر) ٥٢/١٤). (أَمَم: قرب، لسان العرب، (أمم) ١٥٨/١.).

[٣٠] انظر: الزمن في الشعر الجاهلي، عبد العزيز شحادة، المكتبة الوطنية، مصر،١٩٩٥م، ص ٢١١.

[٣] الليل في الشعر الجاهلي، د. نوال ابراهيم، ص ١٢٦.

[٣٢] شرح أشعار الهُذَليّين، ٥٢٢١٢. تكلّفه: تجشَّمه على مشقة. (المراسيل: جمع مرسال الناقة السريعة السير، لسان العرب، (رسل) ١٥٣/١٤). (تكلل: تعيا البعير، المرجع نفسه، (كلل) ١٠١/١٣).

المسافة، وفي هذه الصورة تأكيد على بعد المسافة الفاصلة بينهما. يقول صلاح عبد الحافظ ((الفنُّ الجميل جميل دائماً، سواء في قصيدة شعريّة، أو لوحة فنيّة، طالما أنّ الخيال متحقِّق وفعّال)) [٣].

ويزور طيف المحبوبة الشاعر ربيعة بن الجَحْدر اللِّحاني، مانحاً إيّاه لحظات وصالٍ تُسعِدُ النَّفس وتُرضيها، يقول [٤] [٣]:

أَنَّى تَسدَّى طَيْفُ أُمِّ مُسافِعٍ ... وَقَدْ نَامَ يا ابْنَ القَوْمِ مَنْ هُوَ نَاعِسُ
فَبَاتَتْ هُدوءَ اللَّيل عِنْدي قَرِيْنَتِي ... كِلانا عَلَيه ثوبُها فَهْوَ لابِسُ

هذا الطّيف الزّائر في المنام يحقّق للشّاعر ما يعجز عن الوصول إليه في اليقظة، إنّه يجمع الشاعر بالمرأة، فيتّحد بها اتحاداً تاماً، ويصير جسده وجسدها جسداً واحداً، هذا ما دلّت عليه الكناية في قوله (كِلانا عليه ثوبها فهْوَ لابِسُ). لقد وصلَ الاتحاد بين الشاعر والمحبوبة حتى صارا يرتديان الثوب نفسه–ثوب المحبوبة–، وهذا مجاز وخيال ،يدلُّ على وفاق تام بينهما، والتصاق. فيحقّق طيف هذه المرأة الذي اتّحد به الشاعر لحظات من السّعادة، ينهبُها بلَذّة واستمتاع.

ويجمع مالك بن خالد الخُناعي بين الخيال والطَّلل، فبعد وقوفه الطللي يطرُقه خيالُ المرأة، يقول [٥] :

لِظَمْياءَ دَارٌ قَدْ تَعَفَّتْ رُسومُها ... قِفارٌ وبِالمَنْحَاةِ مِنْها مَسَاكِنُ
فَمَا ذِكْرُهُ إحدَى الزُّلَيفاتِ دَارُها ... الـ ـمَحَاضِرُ إلّا أنَّ منَ حَانَ حَائِنُ
وَإنّي عَلَى أَنْ قَدْ تَجَشَّمْتُ هَجْرَها ... لِمَا كتَّمتْني أُمُّ سَكْنٍ لَضَامِنُ
فَإنْ يُمْسِ أهلي بالرَّجِيْعِ ودُونَنا ... جِبالُ السَّرَاةِ مَهْوَرٌ فَغُوَائِنُ
يوافِكَ مِنْها طَارِقٌ كُلَّ ليلةٍ ... حَثِيثٌ كَمَا وافى الغَرِيمَ المُداينُ
فَهَيْهَاتَ ناسٌ من أُناسٍ دِيارُهُمْ ... دُفَاقٌ وَدَارُ الآخرين الأَوَائِنُ

يبدأ الشاعر لوحته بحديث الطلل متذكّراً المرأة، التي تركته يعاني من الألم إلى درجة الإحساس بالهلاك، فقد أُجبِر على فراقها. وأمام هذا الحاضر المأساوي يلجأ الشاعر إلى الحُلُم للتّخفيف من آلامه، فيكون في زيارة خيالِها بعض شفاء نفسِه المقهورة. يقول الدكتور محمد بريري في أثناء تعليقه على القصيدة ذاتها: ((الطيف والخيال مظهران لمعنى واحد هو الحلم المُفتقَد، والمرأة على كلّ حال غاية يتنسَّمها الشاعر في الطَّلل مرة، وفي الطَّيف مرة أخرى، ولكنّه لا يعاينُها)) . فيكون الخيال الزَّائر هو محاولة الشاعر استعادة التوازن أمام نكبة الفِراق.

---

[٣] الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، د. صلاح عبد الحافظ، جامعة الاسكندرية، مصر،٢٠٨\١٢.

[٣] شرح أشعار الهُذَليّين، ١٢\ ٦٤١. يا ابن القوم: كما تقول يا ابن الكِرَام.

[٣] المصدر نفسه ، ٤٤٤\١١. الزُّليفات: يريد بني زُليفَة، حيٌّ من هُذَيل. الحَيْن: من حَانَ: هَلَك. أي حِنْتُ في ذِكْري إيّاها. كتّمتني: كلّفتني من خُبِّها وكتْمِان سِرِّها. يريد إنّي لضامِنٌ سِرَّها. الطارق: الخيال. حثيث: سريع. الغَريم: المطلوب. المُداين: الذي يطلبُهُ بِدَين. دُفاق: موضع. أوائِن: بلد.

[٣] الأسلوبية والتقاليد الشعريّة (دراسة في شعر الهُذَليّين)، د. محمد بريري، ص١٣٨.

وإذا ربطنا بين زيارة هذا الخيال، وبدء الحديث عنه بالطلل، نجد رغبة الشاعر في التعويض النفسي عمّا ألمَّ به من حسرة، وقهر باللجوء إلى الحلم. ولعلّ مقولة للدكتور محمد البلوحي تدعم هذه الفكرة: الطيف في المقدّمة الطلليَّة إدانة للزّمن المسروق، ومحاولة تعويضيَّة لخلْق بُرهة الفرح المنهوبة، والخيال هو المجال الوحيد الذي لا يمكن للقهر أن يقهره؛ إذ يقوم عن طريق الطَّيف بوظيفة تعويضيَّة يحقِّق التَّطهير من خلالها، وهذا ما يجعل منه آليّة دفاعيّة جَبّارة .

يشبّه الشاعر إلحاح الخيال على الزيارة بإلحاح الدّائن على استعادة ماله. تكشف هذه الصورة عن شدّة تأثير هذه المرأة في الشاعر، وتعلُّقه الكبير بها، فطيفُها يلِحُّ عليه إلحاح من يريد استعادة ماله ممّن قرضه إياه. أمَّا زيارة طيفها الدّائب كلَّ ليلة، فيؤكِّد حضورها المستمرَّ في حياته. هذا الخيال الذي يمرُّ بسرعة، أفضل من بقاء الشاعر حزيناً متحسِّراً على فِراقها. فالخيال يخفِّف عن الشاعر شوقَه وألمَه الشَّديدين. ولا سيّما أنَّ اللقاء محالٌ؛ نتيجة بعد المسافة المكانيَّة التي تفصله عنها. والأمر لا يتعلَّق بالبعد المكاني فقط، فثمَّة مشكلة أخرى هي سوءُ العلاقة مع أهل المحبوبة. وبذلك تغدو المرأة حُلُماً مستحيل النّوال، فما من وسيلة للقائِها سوى الخَيال.

وزيارة الطّيف تكشف عن خبايا نفس الشاعر وأمانيه، فيطرق طيف أميّة منامَ الشاعر غاسِل بن غُزيَّة الجُرَبي، وهو في غزوة، مانحاً إيّاه إحساساً بالسعادة، بَعْدَما امتنعَ الوِصال بسب هذه الغزوة، يقول : [٨]

أَمِنْ أُمَيَّةَ لا طَيْفٌ أَلَمَّ بِنا ... بِجانِبِ الفَرْعِ والأعراءُ قد رَقَدوا
سَرَتْ مِن الفَرْط أو مِنْ نَخْلَتَين فَلَمْ ... يَنْشَبْ بِها جانِبا نَعْمَانَ فالنُّجُدُ
فقُلتُ رُدّي وقولي القومُ قد طَلَعوا ... لِلغَوْرِ والغَزْوُ يَستَذْكِي وَيَنْجرِدُ
ولا تُقيمي على أَيْنِ الغُزَاةِ ولَمْ ... يَصْلُحْ لِمِثْلِكِ إلّا الخَفْضُ والخَرَدُ

يعاني الشاعر من الوحدة في هذا اللّيل، فلا يوجد من يشاطره همَّه، فقد أيقظه طيفُ أُميّةَ من نومه، ولا يوجد من يهتمُّ لأمره، ويسأل عن حاله. أتاه هذا الطّيف، وهو في غزوته. وإذا ما تعمَّقنا في الأبيات وجدْنا أنَّ سعي الشاعر في هذه الحياة هو من أجل تأمين حياة كريمة لأميّة التي تصلح لها معيشةٌ مملوءة بالرَّغَد والهناء. ونجد ما يؤيّد هذا المعنى عند الدّكتور محمّد بريري في أثناء تعليقه على اللَّوحة ذاتِها: ((الشاعر يحلم بهذه المرأة وهو في غمرة الكفاح والنّضال مع الأعداء، وهو إن لم يصرِّح بأنَّ نضاله هذا من أجل أميَّة فإنّ حديثَه الذي يوجّهه إلى طيفها يتضمّن ذلك المعنى، فهو يقول إنّ التّعب والمعاناة اللّذين يقاسيهما لا يصلحان لها، وإنّما يصلح لها خفض العيش، وفي هذا إيحاء بأنّ تعبه ومعاناته في نضال الأعداء هما من أجل الخفاء والخَرَد اللّذين يصلحان لأميّة، ومن جهة أخرى فإنّ طرق خيال المحبوبة وتذكُّرها في مواقف التّعب والمعاناة في تقاليد الشّعر القديم ترجّح هذا التَّفسير)). [٩]

لقد أظهرت الأبيات شوق الشاعر إلى لقاء أميّة ، فطيفها الزائر في المنام أعاد له بعض السكينة. ومادام الوصل غير مقطوع، والهجر آنيَّاً، فهذا الطيف لا يؤرّق وإنّما يُطفئ بعض نيرانِ شوقِ الشاعر إلى لقاءِ الحبيبة. وبذلك يمكننا أن نعُدّ الطيف هنا عاملاً إيجابيَّاً ساعد الشاعر على مقاومة التعب والألم والمعاناة في هذه الغزوة.

---

[٣] انظر :آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، د.محمد بلوحي،اتحاد الكتاب العرب، سورية،٢٠٠٤، ص١٠٨.

[٣] شرح أشعار الهُذَليّين، ٨٠٦١٢. الأعْراءُ: قوم لا يُهمَّهم الأمر ولا يهتمون بأصحابهم. لم ينشَبْ بها: لم يعلق بها. يقول: لم تُقِمْ به. يستذكي: يتحرّك ويشتدّ. ينجرد: يذهب. الأين: الإعياء. يريد أنّها جاءت من النَّوم وهو في غزوته هذه. الخَرَد: الحياء.

[٣] – الأسلوبية والتقاليد الشعرية، د.محمد بريري، ص ١٣٦.

الخاتمة:

وممَّا تقدّم نجد أنَّ الشعراء الهُذَليّين تغزَّلوا بالمرأة غزلاً حسيًّاً ، مستعيرين من الطبيعة ما فيها من عناصر للحديث عن حسنها. أمَّا رحيلها مع قومها، فقد كشفَ عن تعلُّقٍ شديدٍ بها، فقد عدَّد بعض الشعراء الأمكنة التي مرَّ بها الراحلون –ومعهم الحبيبة– حتى غابوا عن نظره. وأعلن بعضهم خبر الرحيل من خلال إعلانه الشوق للمرأة الراحلة. وأنكروا فعل الطبيعة التي فرضت الرحيل، ثمَّ الفراق، وعدَّد أحد الشعراء أسماء النسوة الراحلات واصفاً إيَّاهنَّ بالنضج العقلي والجمال، وذلك في إطار الدلالة على فداحة الخسارة.

وقد أوجعت الذِّكريات الشاعر عندما فارق المرأة، وبَعُدت المسافة الفاصلة بينهما. كما كانت وسيلة لتقويته قبل أن يبدأ حملة وعيده على أحدهم . واتَّكأ على ذكراها في مقاومة فعل الشيخوخة، وتبدُّل الناس، وتقلُّب الأيام.

أما الطيف فقد كان ذا أثر سلبيّ في معظم الأحيان، فالطيف يؤرِّق الشاعر ويهيِّج أحزانه، لقد أيقظ مواجع الشاعر؛ نتيجة بعد المرأة، واستحالة الوصول إليها، فكان البكاء وسيلة الشاعر في مقاومة الحاضر القاسي. وكان له أثر إيجابي أحياناً، فقد منحه لحظات وصال، تُسعد النَّفس وتُرضيها، فخفَّف من آلامه؛ لأنَّ الفِراق كان آنيًّاً وليس دائماً.

المصادر والمراجع :

١. *آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي*، د.محمد بلوحي، اتحاد الكتاب العرب، سورية،٢٠٠٤.

٢. *الأدب الجاهلي، قضاياه أغراضه أعلامه فنونه*، د. غازي طليمات ، أ. عرفان الأشقر، دار الفكر، دمشق،٢٠٠٧.

٣. *الأسلوبية والتقاليد الشعرية، (دراسة في شعر الهُذَليّين)*، د.محمد بريري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

٤. *بنية القصيدة الجاهلية*، د.ريتا عوض، دار الآداب، بيروت، ط٢ ،١٩٩٢م.

٥. *ديوان الهُذَليّين، المكتبة العربية*، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٦. *الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره*، د. صلاح عبد الحافظ، جامعة الاسكندرية، مصر،١٩٨٢م.

٧. *الزمن في الشعر الجاهلي*، عبد العزيز شحادة، المكتبة الوطنية، مصر،١٩٩٥م.

٨. *شرح أشعار الهُذَليّين، أبو سعيد الحسن بن الحسين السُّكَّري تحقيق*: عبد الستّار أحمد فرّاج، مراجعة: محمود محمّد شاكر، طبع مطبعة المدني، نشر مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥م،ج٣ .

٩. *طيف الخيال:الشريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي*،تحقيق: حسن كامل الصيرفي، مراجعة إبراهيم الأبياري، دار إحياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الأولى ١٩٦٢م.

١٠. *لسان العرب*، أبو فضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

١١. *الليل في الشعر الجاهلي*، د.نوال إبراهيم، دار اليازوردي، الأردن،٢٠٠٩.

١٢. *مبادئ النّقد الأدبي*، آ. أي ريتشاردز، تر: د.إبراهيم الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سورية ٢٠٠٢م.

١٣. *المرأة في الشعر الجاهلي* ، د.أحمد محمد الحوفي، دار الفكر العربي، مصر، الطبعة الثانية،١٩٦٣م،

١٤. *مقدمة للشعر العربي*، أدونيس، دار الساقي، لبنان، ٢٠٠٩.